بسم الله الرحمن الرحيم

من الجاهلية الى الاسلام[1]

بعث محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزا عنيفاً، فاذا كل شئ فيه في غير محله، فمن اثاثه و متاعه ما تكسر ومنه ما التوى و انعطف ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكانا آخر ومنه ما تكدس و تكوم، نظر الى العالم بعين الانبياء فرأى انسانا قد هانت عليه انسانيته، فرآه يسجد للحجر و الشجر و النهر و كل ما لا يملك لنفسه النفع و الضرر، رأى انسانا معكوساً قد فسدت عقليته فلم تعد تسيغ البديهيات و تعقل الجليات، و فسد نظام فكره فاذا النظرى عنده بديهى و بالعكس، يستريب في موضع القطع و يؤمن في موضع الشك، وفسد ذوقه فصار يستحلى المر و يستطيب الخبيث و يستمرئ الوخيم و بطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم و لا يحب الصديق

١–فصل من كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟»

الناصح. ورأى مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم كل شئ فيه فى غير شكله اوفى غير محله، قد اصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً واصبح المجرم فيه سعيداً حظيا والصالح محروماً شقيا لاأنكر فى هذا المجتمع من المعروف ولا اعرف من المنكر، ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية وتسوقها الى هوة الهلاك. رأى معاقرة الخمر الى حد الإدمان والإثخان، والخلاعة والفجور الى حد الاستهتار، وتعاطى الربا الى حد الاغتصاب واستلاب الاموال، ورأى الطمع وشهوة المال الى حد الجشع والنهامة، ورأى القسوة والظلم الى حد الوأد وقتل الأولاد، ورأى ملوكا اتخذوا اموال الله دولا وعباد الله خولا، ورأى احباراً ورهبانا اصبحوا اراباً من دون الله يأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح فعادت وبالاعلى أصحابها وعلى الانسانية فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية. والجود تبذيراً وإسرافا والأنفة حمية جاهلية والذكاء شطارة وخديعة والعقل وسيلة لابتكار الجنايات والإبداع فى ارضاء الشهوات.

رأى افراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق ينتفع بها فى هيكل الحضارة، و كالواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة

رأى الأمم قطعانا من الغنم ليس لها راع و السياسة كجمل هائج حباله على غاربه و السلطان كسيف فى يد سكران يجرح به نفسه و يجرح به اولاده وإخوانه.

ان كل ناحية من نواحى هذه الحياة الفاسدة تسترعى اهتمام المصلح و تشغل باله، فلو كان رجل من عامة رجال الإصلاح لتوفر على إصلاح ناحية من نواحيها وظل طول عمره يعالج عيبا من عيوب المجتمع و يعانيه،

ولكن نفسية الانسان معقدة التركيب دقيقة النسج كثيرة المنافذ و الأبواب خفية التخلص والتنصل و انها اذا زاغت اواعوجت لا يؤثر فيها اصلاح عيب من عيوبها وتغيير عادة من عاداتها حتى يغير اتجاهها من الشر الى الخير و من الفساد الى الصلاح و تقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التى قد تنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الحشائش الشيطانية فى أرض كريمة، و تحسم مادة الشر و يغرز فيها حب الخير و الفضيلة و مخافة الله عزوجل.

(٤)

وكل داء من أدواء المجتمع الانسانى وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب اصلاحه حياة كاملة ويستغرق عمر انسان بطوله و قد يستغرق اعمار طائفة من المصلحين ولايزول، فاذا ذهب احد يطارد الخمر فى بلاد قد نشأت على حياة الترف والبذخ و دانت باللهو واللذة احياء امرها وحبطت جهوده لأن شرب الخمر ليس الا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى فى السم وتبتغى النشوة حتى فى الاثم فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب و ببيان مضاره الطبية ومفاسده الخلقية و بسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة[1]،

١ـ منعت حكومة امريكا الخمر وطاردتها فى بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضره كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ويقدر ان ما انفقت الدولة فى الدعاية ضد الخمر يزيد على ٦٠ مليون دولار وان ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ بليون صفحة وماتحملته فى سبيل تنفيذ قانون التحريم فى مدة اربعة عشر عاماً لايقل عن ٣٥٠ مليون جنيه وقد اعدم فيها ٣٠٠ نفس و سجن ٥٣٤٣٣٥ نفس و بلغت الغرامات ١ الى ١٦ مليون جنيه و صادرت من الاملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون واربعة ملايين جنيه ولكن كل ذلك لم يزد الامة الامريكية الا غراما بالخمر و عنادا فى تعاطيها حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ م الى سحب هذا القانون واباحة الخمر فى مملكتها اباحة مطلقة ـ

(من كتاب «تنقيحات» للسيد ابى الاعلى المودودى)

لاتهجره الا بتغيير نفسي عميق و اذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير تسللت الى غيره من انواع الجريمة او استباحته بتغيير الاسماء والصور.

وكان مجال العمل فى بلاد العرب فسيحاً اذا كان الرسول صلى الله عليه و سلم رجلا اقليمياً وسار فى قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين، كان له ان يعقد للامة العربية لواءاً ينضم لبه قريش والقبائل لعربية و يكوّن امارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها. ولاشك ان ابا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة و غيرهما كانوا فى مقدمة من ينضم الى هذا اللواء القوى و يقاتلون تحته و يقلدونه الزعامة. أما كانوا يشهدون بصدقه وأمانته؟ اما حكموه فى اكبر حادث من حوادث حياتهم المكية و منحوه اكبر شرف اذ حكموه فى وضع الحجر الاسود فى مكانه من البيت؟ اما قالوا له على لسان عتبة، وهم ماعرفوا الاغراء السياسى، «ان كنت انما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأساً مابقيت[1]» و اذا صار له ذلك كان يمكنه ان يرمى الدولة الفارسية بفر ان العرب و شجعانهم و ينتصر

1- البداية والنهاية لابن كثير الدمشقى: ص ٦٢ ج ٣

للعروبة المهضومة و ينتصر من العجم الظالمين، ويغرز لم الفتح العربي والمجد القومي على هضاب الروم و فارس، واذالم يكن من حكمة السياسة أن يناجز احدى الامبراطوريتين في ذلك الحين فكان يمكنه ان يغير على اليمن او الحبشة وجارة اخرى و يضمها الى الإمارة العربية الوليدة.

وكانت في الحياة العربية نواح اجتماعية و اقتصادية كثيرة تحتاج الى حنكة سياسي و كفاية اداري و عزيمة عصامي و ابتكار عبقري، فلوقيض لها رجل من هولاء الرجال لكان للعرب شان كبير و تاريخ جديد،

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبعث لينسخ باطلا بباطل و يبدل عدوانا بعدوان و يحرم شيأ في مكان ويحله في مكان آخر، و يبدل أثرة أمة بأثرة امة اخرى، لم يبعث زعيماً وطنياً او قائداً سياسيا يجر النار الى قرصه و يصغي الاناء الى شقه، ويخرج الناس من حكم الفرس و الرومان الى حكم عدنان وقحطان، إنما أرسل الى الناس كافة بشيراً و نذيرا، وداعيا الى الله با ذنه و سراجا منيرا، انما أرسل ليخرج عباد الله جميعاً من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا الى سعة الدنيا و الآخرة، ومن جور الاديان

الى عدل الاسلام. يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم.

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة و وطن دون وطن ولكن كان خطابه للنفس البشرية و للضمير الانسانى، وكانت أمته العربية لانحطاطها و بؤسها احق من يبدأ به مهمته الاصلاحية وجهاده العظيم. وكانت أم القرى وبالجزيرة العربية لموقعها الجغرافى و استقلالها السياسى خير مركز لرسالته وكانت الامة العربية لخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير جارحة لدعوته و خير داعية لرسالته

ولم يكن صلى الله عليه و سلم من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها او يتسللون فيها من نوافذها، و يكافحون بعض الادواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب فمنهم من يوفق لازالة بعضها موقتا فى بعض نواحى البلاد و منهم من يموت ولم ينجح فى مهمته[1]

---

[1]- ان غاندى الزعيم الهندى الكبير استهدف من اول حياته السياسية والروحية مبدأين عظيمين حصر فيهما زعامته السياسية و شخصيته الروحية

أتى النبى صلى الله عليه و سلم بيت الدعوة و الاصلاح من بابه و وضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه. ذلك القفل المعقد الذى، أعيا فتحه جميع المصلحين فى عهد الفترة وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه، دعا الناس الى الايمان بالله وحده و رفض الأوثان و العبادات و الكفر بالطاغوت بكل معانى الكلمة. و قام فى القوم

(تابع هامش ص ٧) القوية النادرتين فى هذا العصر شعار المبدأ الاول «لاعنف و لامقاومة» وقد دعا الى هذا المبدأ كديانة و فلسفة و ظل سنين طوالا يدعو اليها بخطابه و مقالاته و صحفه واستنفد فى ذلك جهوده و لما لم يكن ذلك عن طريق التغيير النفسى و عن طريق الدعوة الدينية الاساسية لم توثر دعوته فى نفسية أمته تأثيرا عميقا و قد جعلت هذه الامة دعوته هباءا منثورا فى الاضطرابات الطائفية العظيمة التى وقعت فى بنجاب الشرقية و دهلى عاصمة الهند فى ستمبر و اكتوبر التى قتل فيها من المسلمين اكثر من نصف مليون و كانت مجزرة بشرية هائلة وقع فيها من القسوة و المجبة و الاعتداء على الأطفال والنساء و الأعراض مالايكاد يصدقه المورخون المتأخرون، حتى انتهت باغتيال هذا الرجل العظيم الذى بلغت به امته الى التقديس و التاليه.

والمبدأ الثانى نسخ اللمس المنبوذ و لم ينجح فى مهمته كذلك نجاحا يعتد به. فكان ذلك برهانا ساطعا على أن طريق الأنبياء هو الطريق الطبيعى الصحيح فى الاصلاح و التغيير.

ينادى «يا ايها الناس قولوا: لا اله الا الله تفلحوا» و دعاهم الى الايمان برسالته و الايمان بالآخرة.

ما اخطأ المجتمع الجاهلى فهم هذه الدعوة و مراميها و ما غم على أهله أمرها و أدركوا عندما قرع اسماعهم صوت النبى صلى الله عليه و سلم ان دعوته الى الايمان بالله وحده سهم مسدد الى كبد الجاهلية و نعى لها، فقامت قيامة الجاهلية و دامت عن قرائها دفعها الاخير وقاتلت فى سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت واجلبت على الداعى صلى الله عليه وسلم بخيلها ورجلها و جاءت بجدها وحديدها «و انطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم. ان هذا لشيئ يراد» و وجد كل ركن من اركان هذه الحياة و من أنانى الجاهلية نفسه مهددة وحياته منذرة وهنا وقع ما تحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب، وفى ذلك آية توفيق النبى صلى الله عليه وسلم وأنه أصاب الغرض وضرب على الوتر الحساس و اصاب الجاهلية فى صميمها وفى مقتلها. وثبت النبى صلى الله عليه وسلم على دعوته ثبوتا دونه ثبوت الراسيات لا يثنيه أذى و لايلويه كيد ولا يلتفت الى إغراء و يقول لعمه «يا عم لو وضعت الشمس

فى يمينى والقمر فى يسارى ماتركت هذا لامر حتى يظهره الله او اهلك فى طلبه ا»

مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو الى الله وحده والايمان برسالته واليوم الآخر فى كل صراحة، لا يكنى ولا يلوح ولا يلين ولا يستكين ولا يحابى ولا يداهن ويرى فى ذلك دواءً لكل داء، وقامت قريش وصاحوا به من كل جانب وموه عن قوس واحدة واضرموا البلاد عليه ناراً ليحولوا بينه وبين أبنائهم واخوانهم، فاصبح الايمان به والانحياز اليه جدا لجد لا يتقدم اليه الا جاد مخلص هانت عليه نفسه وعزم على أن يقتحم لاجله النيران ويمشى اليه ولو على حسك السعدان، فتقدم فتية من قريش لايستخفهم طيش الشباب، ولايستهويهم مطمع من مطامع الدنيا، انما همهم الآخرة، وبغيتهم الجنة، سمعوا مناديا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فضاقت عليهم الحياة الجاهلية بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وأقضت بهم مضاجعهم فكأنهم على الحسك ورأوا انهم لا يسعهم إلا الايمان بالله ورسوله فآمنوا وتقدموا الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى بلدهم وبين سمعهم وبصرهم فكانت رحلة

١ـ البداية والنهاية ج ٣ ص ٤٣ ـ

طويلة شاقة لما اقامت قريش بينه و بين قومه من عقبات و وضعوا ايديهم فى يده واسلموا انفسهم و ارواحهم اليه و هم من حياتهم على خطر و من البلاء والمحنة على يقين . سمعوا القرآن يتلى «ام حسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون ٥ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» وسمعوا قوله تعالى «ام حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب» فما كان من قريش الا ما توقعوه قد نثرت كنانتها واطلقت عليهم كل سهم من سهامها فما زادهم كل هذا الا ثقة و تجلداً وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم الا ايمانا و تسليما ، ولم يزدهم هذا البلاء والا ضطهاد فى الدين الا متانة فى عقيدتهم وحمية لدينهم ومقتا للكفر وأهله و إشعالا لما طفتهم و تمحيصاً لنفوسهم فاصبحوا كالتبر المسبوك واللجين الصافى وخرجوا من كل محنة وبلاء خروج السيف من الجلا .

هـذا والـرسول - صلى الله عليه و - لم - يغذى أرواحهم بـالـقرآن ويربى نفوسهم بـالإيمـان و يخضعهم امـام رب العـالمين خمس مرات فى اليوم عن طهـارة بدن و خشوع قـلب وخضوع جسم وحضور عقل فيزداد ون كل يوم سموروح ونقاء قلب و نظـافة خلق وتحرراً من سلطـان المـاديات و جماح الشهوات و نزوعـا الى رب الارض والسمـاوات، وياخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس ، لقد رضعوا بالحرب و كانهم ولدوا مع السيف وهم من امة من ايامهـا حرب بسوس و داحس والغبراء ومـايوم الفجـار ببعيد. ولكن الرسول يقهر طبيعتهم الحربية ويكبح نخوتهم العربية و يقول لهم « كفوا ايديكم وأقيموا الصلواة » فانقهروا لامره و كفوا ايديهم و تحملوا من قريش ماتسيل منه النفوس فى غير جبن و فى غير عجز و لم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم فى مكة عن نفسه بـالسيف و ملكته سـو رة النفس مـع كثرة الـدواعى الطبيعية الى ذلك وقوتها وذلك غاية ما روى فى التـاريخ من الطـاعة والخضوع، حتى اذا تعدى قريش فى الطغيـان و بلغ السيل الـزبى أذن الله لـرسولـه ولأصحابـه بـالهجرة وها جروا الى يثرب وقـد سبقهم اليهـا الاسلام.

والتقى أهل مكة باهل يثرب لايجمع بينهم الا الدين الجديد، فكان اروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ، وكانت أوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار حرب بعاث ولاتزال سيوفهم تقطر دماً، فألف الاسلام بين قلوبهم لو أنفق احد ما فى الارض جميعاً ما الف بين قلوبهم ثم آخى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بينهم و بين المهاجرين فكانت اخوة تزرى باخوة الاشقاء وتبذ كل ما روى فى التاريخ من خلة الاخلاء.

كانت هذه الجماعة الوليدة المؤلفة من أهل مكة المهاجرين ، أهل يثرب الأنصار نواة للامة الاسلامية الكبيرة التى أخرجت للناس ومادة للاسلام، فكان ظهور هذه الجماعة فى هذه الساعة العصيبة وقاية للعالم من الانحلال الذى كان يهدده و عصمة للانسانية من الفتن والأخطار التى أحدقت بها، لذلك قال الله تعالى لماحض على الأخوة و الألفة بين المهاجرين والأنصار «إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير».

ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يربيهم تربية دقيقة

عميقة، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكى جمرة قلوبهم ولم تزل مجالس الرسول، صلى الله عليه و سلم، تزيدهم رسوخاً فى الدين و عزوفا عن الشهوات و تفانيا فى سبيل المرضاة وحنينا الى الجنة و حرصاً على العلم وفقهها فى الدين ومحاسبة للنفس يطيعون الرسول فى المنشط والمكره و ينفرون فى سبيل الله خفافا و ثقالا. قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعا و عشرين مرة فى عشرسنين، وخرجوا بسراياه لقتال العدو أكثر من مأة مرة، فهان عليهم التخلى عن الدنيا و هانت عليهم رزيئة اولادهم و نسائهم فى نفوسهم. ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه و لم يتعودوه، وبكل ما يشق على النفس اتيانه فى المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها، انحلت العقدة الكبرى ـ عقدة الشرك والكفر ـ فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول جهاده الاول فلم يحتج الى جهاد مستأنف لكل امر و نهى، و انتصر الاسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى، فكان النصر حليفه فى كل معركة، وقد دخلوا فى السلم كافة بقلوبهم و جوارحهم و ارواحهم كافة، لايشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى و لايجدون فى انفسهم حرجا مما قضى ولايكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى،

حدثوا الرسول عما اختانوا انفسهم، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد. نزل تحريم الخمر والكؤس المندفقة لى راحاتهم، فحال امر الله بينها وبين اشفاه المتلمظة والاكباد المتقدة و كسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة.

حى اذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم وانصفوا من انفسهم إنصافهم من غيرهم واصبحوا فى الدنيا رجال لآخرة وفى اليوم رجال الغد لاتجزعهم مصيبة و لاتبطرهم نعمة و لا يشغلهم فقر و لا يطغيهم غنى، لاتلهيهم تجارة ولاتستخفهم قوة لايريدون علوا فى الارض ولافسادا و صبحوا للناس القسطاس المستقيم قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسهم او الوالدين والاقربين، وطأ لهم أكناف الأرض واصبحوا عصمة للبشرية و وقاية للعالم و داعية الى دين الله و استخلفهم الرسول صلى الله عليه و سلم فى عمله و لحق بالرفيق الاعلى قرير العين من أمته و رسالته.

لقد كان هذا الانقلاب الذى احدثه، صلى الله عليه و سلم،

فى نفوس المسلمين و بواسطتهم فى المجتمع الانسانى اغرب ما وقع فى تاريخ البشر، و قد كان هذا الانقلاب غريباً فى كل شيئ: كان غريباً فى سرعته و كان غريبا فى عمقه وكان غريباً فى سعته و شموله وكان غريباً فى وضوحه وقربه الى الفهم، فلم يكن غامضاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة و لم يكن لغزة من الالغاز فلندرس هذا الانقلاب علميا و لنتعرف مدى تاثيره فى المجتمع الانسانى و التاريخ البشرى.

كان الناس - عربا و عجما - يعيشون حياة جاهلية يسجدون فيها لكل ماخلق لاجلهم و يخضع لإرادتهم و تصرفهم لايثيب الطائع بجائزة و لايعذب العاصى بعقوبة و لايأمر و لاينهى، فكانت الديانة سطحية طافية فى حياتهم ليس لها سلطان على ارواحهم و نفوسهم و قلوبهم ولاتاثير لها فى أخلاقهم و اجتماعهم، كانوا يومنون بالله كصانع اتم عمله واعتزل و تنازل عن مملكته لاناس خلع عليهم خلعة الربوبية فاخذوا بايديهم أزمة الامر و تولوا ادارة المملكة و تدبير شئونها

و توزيع أرزاقها الى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة فكان إيمانهم بالله لايزيد على معرفة تاريخية، فكان إيمانهم بالله و إحالتهم خلق السمٰوات و الأرض الى الله لايختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له «من بنى هذا القصر العتيق؟» فيسمى ملكا من الملوك الاقدمين من غير ان يخافه و نخضع له فكان دينهم عاريا عن الخشوع لله و دعائه و ماكانوا يعرفون عن الله ما يحبه إليهم فكانت معرفتهم مبهمة غامضة قاصرة مجملة لا تبعث فى نفوسهم هيبة و لا محبة.

و هذه الفلسفة اليونانية قدعرفت بواجب الوجود فى سلوب ليست فيها صفة مثبتة من صفات القدرة و الربوبية والإعطاء و المنع و الرحمة و لم تثبت له الا الخلق الاول، و نفت عنه الاختيار و العلم والارادة و نفت الصفات و قررت كليات كلها حط عن قدر الخالق و قياس على الخلق، و السلوب اذا اجتمعت لم تفد فائدة إيجاب واحد، ولم نعلم مدنية واحدة و لا مجتمعا ولا نظاما ولا عملا و لا بناية قامت على مجرد السلوب، فتجردت الديانة فى أوساط الفلسفة الإغريقية عن روح الخشوع والاستكانة لله والالتجاء

اليه فى الحوادث و محبته بكل القلب و هكذا فقدت الديانة السائدة على العالم روحها و أصبحت طقوسا و تقاليد وأشباحا للايمان .

انتقل العرب و الذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الخشيبة الى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح و النفس و القلب و الجوارح، ذات تاثير فى الأخلاق والاجتماع ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها، آمنوا بالله الذى له الاسماء الحسنى والمثل الاعلى آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الملك القدوس السلام المومن المهيمن العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق البارئ المصور، العزيز الحكيم الغفور الودود الرؤف الرحيم، له الخلق والأمر بيده ملكوت كل شئ يجير ولا يجار عليه الى آخر ما جاء فى القرآن من وصفه، يثيب بالجنة و يعذب بالنار ويبسط الرزق لمن يشاء و يقدر يعلم الخبء فى السموات والارض و يعلم خائنة الاعين و ما تخفى الصدور الى آخر ما جاء فى القرآن من قدرته وتصرفه و علمه، فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح إنقلابا عجيباً، فاذا آمن احد بالله و شهد ان

لا اله الا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن، تغلغل الايمان في احشائه و تسرب الى جميع عروقه و مشاعره و جرى منه مجرى الروح و الدم، و اقتلع جراثيم الجاهلية و جذورها و غمر العقل و القلب بفيضانه و جعل منه رجلا غير الرجل و ظهر منه من روائع الايمان و اليقين والصبر و الشجاعة و من خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل و الفلسفة و تاريخ الاخلاق و لا تزال موضع حيرة و دهشة منه الى الأبد، و عجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق.

و كان هذا الايمان مدرسة خلقية و تربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة ارادة و قوة نفس و محاسبتها و الإنصاف منها و كان اقوى وازع في تاريخ الاخلاق و علم النفس عن الزلات الخلقية و السقطات البشرية حتى اذا جمحت السورة البهيمية في حين من الاحيان و سقط الانسان سقطة و كان ذلك حيث لا تراقبه عين و لا تتناوله يد القانون تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة و وخزا لاذعا للضمير و خيالا مروعا لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون و يعرض

نفسه للعقوبة الشديدة و يتحملها مطمئنا مرتاحاً تفادياً من سخط الله و عقوبة الآخرة.

و قد حدثنا المؤرخون الثقات فى ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها الا فى التاريخ الاسلامى الدينى، فمنها ماروى مسلم بن الحجاج القشيرى صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن ماعزبن مالك الأسلمى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: «يا رسول الله، انى ظلمت نفسى و زنيت و انى أريد ان تطهرنى». فرده فلما كان من الغد أتاه فقال: «يا رسول الله انى قدزنيت». فرده الثانية فارسل رسول الله صلى الله عليه و سلم الى قومه فقال «أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً»؟ فقالوا: «ما نعلمه الا وفى العقل من صالحينا فيما نرى» فأتاه الثالثة فأرسله اليهم أيضاً فسئل عنه فاخبروه أنه لابأس به و لابعقله. فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمره فرجم.

قال فجائت الغامدية فقالت «يا رسول الله انى قدزنيت فطهرنى» و انه ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله، لم تردنى؟ لعلك ان تردنى كما رددت ماعزاً

فوالله انى لحبلى قال، أما لا فاذهبى حتى تلدى، قال فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة، قالت هذا قد ولدته. قال اذهبى فارضعيه حتى تطعميه. فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز، فقالت هذا، يا نبى الله. قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ثم أمرها فحفر لها الى صدرها و أمر الناس فرجموها. فاستقبل خالد بن وليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله سبه اياها فقال «مهلا يا خالد. فو الذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له» ثم أمر بها فصلى عليها و دفنت[1].

وكان هذا الايمان حارساً لأمانة الانسان و عفافه وكرامته بملك نفسه النزوع امام المطامع و الشهوات الجارفة وفى الخلوة و الوحدة حيث لايراه أحد، وفى سلطانه و نفوذه حيث لايخاف أحداً، وقد وقع فى تاريخ الفتح الاسلامى من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات الى أهلها والإخلاص لله مايعجز التاريخ البشرى عن نظائره. وما ذاك الا نتيجة رسوخ الايمان و مراقبة الله و استحضار علمه فى كل مكان و زمان.

١ــ صحيح مسلم كتاب الحدود.

حدث الطبرى قال لماهبط المسلمون المدائن و جمعوا الأقباض أقبل رجل بحق معه فدفعه الى صاحب الأقباض فقال و الذين معه مارأينا مثل هذا قط مايعدله ماعندنا و لايقار به فقالوا هل أخذت منه شيأ؟ فقال أما و الله، لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا ان للرجل شأناً فقالوا من انت؟ فقال لا و الله لا اخبركم لتحمدونى ولا غير كم ليقرظونى و لكنى أحمد الله و أرضى بثوابه فاتبعوه رجلا حتى انتهى الى اصحابه فسأل عنه فاذاهو عامر بن عبد قيس [١].

وكان هذا الايمان بالله وحده قد رفع رأسهم عالياً أقام صفحة عنقهم فلم تخن لغير الله أبداً لا لملك جبار و لالحبر من الاحبار و لا لرئيس دينى ولادنيوى وملأ قلوبهم و عيونهم بكبرياء الله تعالى و عظمته فهانت فيها وجوه الخلق وزخارف الدنيا و مظاهر العظمه و الفخفخة فاذا رأوا الى الملوك و حشمتهم و ماهم فيه من ترف و نعيم و زينة وزخرف فكانهم ينظرون الى صورودمى قد كسيت ملابس الانسان.

١ــ تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦ -

عن ابى موسى قال انتهينا الى النجاشى و هو جالس فى مجلسه و عمرو بن العاص عن يمينه و عمارة عن يساره والقسيسيون جلوس سماطين و قد قال له عمرو و عمارة انهم لا يسجدن لك فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين و الرهبان، اسجدو الملك فقال جعفر لا نسجد الا لله ا۔

ارسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسية و أميرهم فدخل عليه و قد زينوا مجلسه بالنمارق و الزرابى الحرير و اظهر اليواقيت و اللآلى الثمينة العظيمة و عليه تاجه و غير ذلك من الامتعة الثمينة و قد جلس على سرير من ذهب و دخل ربعى بثياب صفيقه و ترس و فرس قصيرة و لم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل و ربطها ببعض تلك الوسائد و أقبل و عليه سلاحه و درعه وبيضه على رأسه، فقالوا له ضع سلاحك فقال انى لم آتكم و انما جئتكم حين دعوتمونى فان تركتمونى هكذا و الا رجعت فقال رستم

ا۔ البداية ج ٣۔

اتذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها فقالوا له ماجاء بكم فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله و من ضيق الدنيا الى سعتها و من جور الأديان الى عدل الإسلام.

و لقد بعث الايمان بالآخرة فى قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة و حنينا غريباً الى الجنة و استهانة نادرة بالحياة تمثلوا الآخرة و تجلت لهم الجنة بنعيمها كأنهم رأى عين فطاروا اليها طيران حمام الزاجل لايلوى على شيئ.

تقدم أنس بن النضر يوم أحد و انكشف المسلمون فاستقبله سعدبن معاذ فقال يا سعد بن معاذ، الجنة و رب الكعبة انى أجد ريحها من دون أحد، قال أنس فوجدنا به بضعاً و ثمانين ضربة بالسيف اوطعنة برمح اورمية بسهم و وجدناه قد قتل و مثل به المشركون فماعرفه احد الاأخته ببنانه [1].

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم بدر قوموا

١ــ متفق عليه.

الى جنة عرضها السموات والارض فقال عمير بن الحمام الانصارى يا رسول الله جنة عرضها السموات والارض قال بخ بخ نعم، قال فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم مايحملك على قولك بخ بخ قال لا و الله يا رسول الله الا رجاء ان أكون من أهلها قال فانك من أهلها فاخرج تمرات من قرنه فجعل ياكل منهن ثم قال لئن انا حييت حتى آكل تمراتى هذه انها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل ا

عن أبى بكر بن أبى موسى الاشعرى قال سمعت ابى رضى الله عنه و هو بحضرة العدو يقول قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ان ابواب الجنة تحت ظلال السيوف فقام رجل رث الهيئة فقال يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول هذ قال نعم فرجع الى اصحابه فقال أقرء عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فالقاه ثم مشى بسيفه الى العدو فضرب حتى قتل ا .

كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج و كان

ا ــ رواه مسلم .

له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه و سلم اذا غزا فلما توجه الى احد أراد ان يتوجه معه فقال له بنوه ان الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت و نحن نكفيك و قد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله ان بنى هولاء يمنعونى ان اخرج معك و و الله انى لارجو ان استشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم أما انت فقد وضع الله عنك الجهاد و قال لبنيه و ما عليكم ان تدعوه لعل الله عزوجل ان يرزقه الشهادة فخرج مع رسول صلى الله عليه و سلم فقتل يوم أحد شهيداً ١.

قال شداد بن الهاد جاء رجل من الأعراب الى النبى صلى الله عليه و سلم فآ من به و اتبعه فقال أهاجر معك فاوصى به بعض اصحابه فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه و سلم شيأً فقسمه و قسم للاعرابى فأعطى أصحابه ما قسم له و كان يرعى ظهرهم فلما جاء د فعوه اليه فقال ماهذا؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله صلى الله

١ــزادالمعاد ج ٢ ص ١٣٥ ـ

عليه و سلم فأخذه بخناق به الى النبى صلى الله عليه و سلم فقال ماهذا يا رسول الله قال قسم قسمته لك قال ما على هذا اتبعتك و لكن اتبعتك على أن أرمى ههنا و أشار الى حلقه بسهم فأموت فادخل الجنة فقال ان تصدق الله ليصدقك ثم نهضوا الى قتال العدو فأتى به النبى صلى الله عليه و سلم و وهو مقتول فقال أهو هو؟ قالوا: نعم فقال صدق الله فصدقه ١.

و كانوا قبل هذا الإيمان فى فوضى من الافعال والأخلاق و السلوك والاخذ والترك و السياسة و الاجتماع لايخضعون لسلطان و لا يقرون بنظام و لاينخرطون فى سلك، يسيرون على الاهواء و يركبون العمياء و يخبطون خبط عشواء، فاصبحوا الآن فى حظيرة الايمان والعبودية لايخرجون منها واعترفوا لله بالملك و السلطان و الامر والنهى ولأنفسهم بالرعوية و العبودية و الطاعة المطلقة و أعطوا من انفسهم لقادة و استسلموا للحكم الالهى استسلاماً كاملا و وضعوا اوزارهم و تنازلوا عن اهوائهم و أنانيتهم و أصبحوا عبيداً لايملكون مالا و لانفسا و لاتصرفا

١ــــ زاد المعاد ج ٢ ص ١٩٠ ـ

فى الحياة الا مايرضاه الله و يسمح به لا يحاربون ولا يصالحون الا باذن الله ولا يرضون و لا يسخطون و لا يعطون و لا يمنعون ولا يصلون و لا يقطعون الا باذنه و وفق امره و لما كان القوم يحسنون اللغة التى نزل بها القرآن و تكلم فيها الرسول صلى الله عليه و سلم عرفوا الجاهلية و نشأوا عليها ، عرفوا معنى الاسلام معرفة صحيحة و عرفوا انه خروج من حياة الى حياة، و من مملكة الى مملكة و من حكم الى حكم أو من فوضوية الى سلطة، و من حرب الى استسلام و خضوع ، و من الأنانية الى العبودية فإذا دخلوا فى الاسلام فلا افتيات فى الرأى و لا نزاع مع القانون الالٰهى و لا خيرة بعد الامر و لا مشاقة للرسول و لا تحاكم الى غير الله و لا اصدار عن الرأى و لا تمسك بتقاليد و عادات ولا ائتمار بالنفس فكانوا اذا اسلموا انتقلوا من الحياة الجاهلية بخصائصها و عاداتها و تقاليدها الى الاسلام بخصائصه و عاداته و اوضاعه و كان هذا الانقلاب العظيم يحدث على اثر قبول الاسلام من غير أن .

هم فضالة بن عمير بن الملوح ان يقتل رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يطوف بالبيت فلما دنا منه

قال له رسول الله صلى الله عليه و سلم أفضالة ؟ قال نعم فضالة يا رسول الله! قال ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال لا شيئى كنت أذكر الله. فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال استغفر الله ثم و ضع يده على صدره فسكن قلبه و كان فضالة يقول و الله مارفع يده عن صدرى حتى ماخلق الله شيأً أحب الىّ منه قال فضالة فرجعت الى أهلى فمررت بامرأة كنت اتحدث أليها قالت هلم الى الحديث فقلت يأبى الله عليك و الاسلام ا.

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله و صفاته و أفعاله و عن بداية هذا العالم و مصيره و مايهجم عليه الانسان بعد موته و أتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب و كفوهم مؤنة البحث و الفحص فى علوم ليس عندهم مباديها و لا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا الى مجهول لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة لا تعمل فيها حواسهم و لا يؤدى اليها نظرهم و ليست عندهم معلوماتها الأ و ليه.

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة و أعادوا الامر جذعا و بدأوا البحث أنفاً وبدأوا رحلتهم فى مناطق مجهوله

ا — زاد المعاد ج ٢ ص ٢٣٤ .

لا يجدون فيها مرشدا و لا خبرا و كانوا فى ذلك أكثر ضلالا و أشد تعبا و أعظم اشتغالا بالفضول من رواد لم يقتنع بما أدى اليه العلم الإنسانى فى الجغرافية و ما حدد و ضبط فى الخرائط على تعاقب الأجيال فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال و عمق البحار من جديد و يختبر الصحارى والمسافات و الحدود بنفسه على قصر عمره و ضعف قوته و فقدان آلته فلم يلبث ان انقطعت به مطيته و خانته عزيمته فرجع بمذكرات وإشارات مختلة وكذلك الذين خاضوا فى الالهيات من غير بصيرة و على غير هدى، جاؤا فى هذا العلم بآراء فجة و معلومات ناقصه و خواطر سانحة و نظريات مستعجلة فضلوا و أضلوا.

وكذلك ممدحهم الأنبياء عليهم السلام مبادئ ثابتة و محكمات هى أساس المدنية الفاضلة و الحياة السعيدة فى كل زمان و مكان فجرموها على تعاقب الأعصار فبنوا مدنيتهم على شفا جرف هار و أساس منهار و على قياس و اختبار فزاغ أساس المدنية و تداعى بنائها و خر عليهم السقف من فوقهم.

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم سعداء موفقين

جدا اذ عولوا فى ذلك كله على رسول الله صلى الله عليه و سلم فكفوا المؤونة و سعدوا بالثمرة و وفروا ذكاءهم و قوتهم و جهادهم فى غير جهاد و وفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فى مايعنيهم من الدين والدنيا و تمسكوا بالعروة الوثقى و أخذوا فى الدين بلب اللباب.

إن هذا الإيمان بالله و الرسول واليوم الآخر و الاسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة ورد كل فرد فى المجتمع البشرى الى موضعه لا يقصرعنه و لا يتعداه وأصبحت الهيئة البشرية باقة زهر لاشوك فيها. أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم و آدم من تراب لافضل لعربى على عجمى ولالعجمى على عربى الا بالتقوى يقول النبى صلى الله عليه و سلم «كلكم بنو آدم و آدم خلق من تراب و لينتهن قوم يفخرون بآبائهم اوليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان[1]» ويسمعه الناس يقول «يا ايها الناس ان الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية و تعظمها بآبائها فالناس رجلان رجل بر تقى كريم على الله تعالى و رجل فاجر شقى. هين

---

١ — تفسيرابن كثير سورة الحجرات.

على الله تعالى[1]» و يقول «ان أنسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد كلكم بنو آدم طف الصاع لم يمنعوه ليس لأحد على أحد فضل الا بدين و تقوى[2]» و عن أبي ذر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه و سلم قال له «انظر فانك لست بخير من أحد ولا اسود الا ان تفضله بتقوى الله[3]» و يسمعه الناس يقول في ماينا جي به ربه في آخر الليل «وانا شهيدان العباد كلهم إخوة»[3].

واقتلع صلى الله عليه و سلم جذور الجاهلية و جراثيمها و حسم مادتها و سد كل نافذة من نوافذها فقال «ليس منا من دعا الى عصبية و ليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية[4]» و عن جابر بن عبد الله قال «كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الا نصاري يا للأنصار فقال المهاجري يا للمهاجرين فقال

١ــــ رواه ابن ابي حاتم.

٢ــــ رواه الامام احمد.

٣ رواه ابو داؤد.

٤ــــ رواه أبو داؤد.

النبى صلى الله عليه و سلم دعوها فانها منتنة[1]» وحرم حمية الجاهلية و قيد ذلك التناصر الذى جرت الجاهلية العربية على إطلاقه فكان من الأمثال السائرة و شرائع الجاهلية الثابتة «أنصر أخاك ظالما أو مظلوما» قال النبى صلى الله عليه و سلم «من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذى ردى فهو ينزع بذنبه[2]» و تغيرت بذلك نفسية العربى و عقليته حتى أصبح ذوق المسلم العربى لا يسيغ ذلك المثل العربى السائر حتى اذا قال النبى صلى الله و سلم مرة «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» لم يملك نفسه فقال «يارسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟» قال صلى الله عليه و سلم «تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه[3]».

وأصبحت الطبقات والأجناس فى المجتمع الأسلامى متعاونة متعاضدة لا يبغى بعضها على بعض فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما انفقوا من أموالهم، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، لهن مثل الذى عليهن بالمعروف. وأصبح كل واحد

١ــ رواه البخارى.
٢ــ تفسير ابن كثير.
٣ــ حديث متفق عليه.

فى المجتمع راعيا و مسؤلا عن رعيته، الامام راع و مسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله و مسئول عن رعيته و المرأة راعية فى بيت زوجها و مسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده و مسئول عن رعيته، وهكذا اكان المجتمع الاسلامى مجتمعا رشيداً عاقلا مسئولا عن أعماله.

وأصبح المسلمون أعوانا على الحق أمرهم شورى بينهم يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم فان عصى فلا طاعة له عليهم وأصبح شعار الحكم «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»[1] وأصبحت الأموال والخزائن التى كانت طعمة للملوك والأمراء و دولة بين الأغنياء مال الله الذى لاينفق الا فى وجهه ولايخرج الا فى حقه وأصبح المسلمون مستخلفين فيه والخليفة كولى اليتيم ان استغنى استعف وان افتقر أكل بالمعروف وأصبحت الأرض التى اغتصبها الملوك والأمراء يفسحونها لمن يشاؤن ويضيقونها على من يشاؤن ويقطعها بعضهم بعضا كما يقطع الثوب أصبحت أرض الله التى من

١ـ حديث نبوى -

ظلم قد شبر منها طوقه من سبع أرضين [١].

وكان المجتمع البشرى قد فقد نشاطه واريحيته فى الحياة وفى كل ما يأتى ويذر وكان مجتمعا هفا محنوقا، فكان مدفوعا الى ساحة الحرب من غير أن ينشط او يتحمس لأغراض أولى الأمر وكان مدفوعا الى الصلح ولم يقض من الحرب وطرا ولم يشف نفسه وكان الرجال فى هذا المجتمع يرغمون على التضحية والايثار وكابدة المشاعب ومعاناة الامور الشاقة من غير هوى ومن غير وجدان ومن غير عاطفة. لايحبون القادة ولايحبونهم فكانوا مرغمين على ان يطيعوا من لايحبونه ويفدوا بارواحهم واموالهم من يبغضونه. فانطفئت جمرة القلوب وبردت العواطف ونشأ الناس على النفاق والرياء والختل ونشأت النفوس على الذل وتحمل الضيم والصغار.

كانت العاطفة القوية التى يرجع اليها الفضل فى غالب عجائب الانسانية ومعظم الآثار الخالدة فى التاريخ، تلك التى يسميها الناس «الحب» تائهة ضائعة لم يظهر منذ قرون

---

١ — متفق عليه.

من يشغلها و يستثمرها فضاعت فى الوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلابة الفانيه مما تغنّى به الشعراء قديما و حديثا.

فى هذا المجتمع الحائر المظلوم قام محمد صلى الله عليه و سلم فحل عقاله و فك إساره ثم حل منه محل الروح و النفس و شغل منه مكان القلب و العين و هو البشر الذى جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال وإبلغ معانى الحسن والاحسان من رآه بديهة هابه و من خالطه معرفة احبه يقول ناعته لم أر قبله و لا بعده مثله. فاندفع اليه الحب الصادق كاندفاع الماء الى الحدور و انجذبت اليه النفوس و القلوب انجذاب الحديد الى المغناطيس كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد و أحبه رجال أمته و اطاعوه حبا و طاعة لم يسمع بمثلها فى تاريخ العشاق و المتيمين و وقع من خوارق الحب و الاضمحلال و التفانى فى سبيل طاعته و إيثاره على النفس و الاهل والمال والولد مالم يحدث قبله ولن يحدث بعده.

وطئ ابو بكر بن ابى قحافة فى مكة يوماً بعد ما اسلم و ضرب ضرباشد بدأ و دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين و يحرفهما لوجهه وتزاعلى

بطن ابى بكر جنى مايعرف و جهه من انفه و حملت بنو تيم ابا بكر فى ثوب حتى ادخلوه منزله و لايشكون فى موته فتكلم آخر النهار فقال مافعل رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ فسوا منه بأنفسهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لامه أم الخير انظرى ان تطعميه شيئاً اوتسقيه اياه فلما خلت به الحت عليه و جعل يقول مافعل رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ فقالت و الله مالى علم بصاحبك فقال اذهبى الى أم جميل بنت الخطاب فاسألها عنه فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت ان أبابكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟ فقالت ما أعرف أبابكر و لا محمد بن عبد الله و ان كنت تحبين ان أذهب معك الى ابنك قالت نعم فمضت معها حتى وجدت أبابكر صريعا دنفا فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح و قالت و الله ان قوماً فعلوا هذا منك لأهل فسق و كفر وانى لارجو ان ينتقم الله لك منهم قال فما فعل رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ قالت هذه أمك تسمع ! قال فلاشيئى عليك منها قالت سالم صالح ! قال أين هو ؟ قالت فى دار ابن الارقم قال فان لله على ان لا اذوق طعاماً ولا اشرب شرابا أوآتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فامهلتا حتى اذا هدأت الرجل و سكن الناس خرجتا به

يتكئى عليهما حتى ادخلناه على رسول الله صلى الله عليه و سلم ١ .

خرجت إمرأة من الانصار نتل ابوها و اخوها و زوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالت ما فعل رسول الله صلى الله عليه سلم؟ قالوا خيراً هو بحمد الله كما تحبين! قالت أرنيه حتى أنظر اليه فلما رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل ٢ .

رفعوا خبيبا رضى الله عنه على الخشبة و نادوه يناشدونه انحب أن محمداً مكانك؟ قال لا والله العظيم ما أحب ان يفديني بشوكة يشاكها في قدمه فضحكوا منه ٣ .

قال زيد بن ثابت بعثني رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم أحد اطلب سعد بن الربيع فقال لي ان رأيته فاقرأ منى السلام و قل له يقول لك رسول الله صلى الله عليه و سلم كيف تجدك، قال فجعلت اطوف بين القتلى فاتيته و هو بآخر

١ــ البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

٢ــ رواه ابن اسحاق امام المغازي و رواه البيهقي مرسلا .

٣ــ البداية و النهاية ج ٤ ص ٦٣ .

رمق و فيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح و ضربة بالسيف و رمية بسهم فقلت يا سعد ان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقرأ عليك السلام و يقول لك أخبرني كيف تجدك فقال و على رسول الله صلى الله عليه و سلم السلام و قل له يا رسول الله أجد ريح الجنة و قل لقومي الانصار لاعذر لكم عند الله ان خلص الى رسول الله صلى الله عليه و سلم و فيكم عين تطرف و فاضت نفسه من وقته[1].

وترس ابو دجانة يوم احد على رسول الله صلى الله عليه و سلم بظهره و النبل يقع فيه و هو لا يتحرك[2] و مص مالك الخدري جرح رسول الله صلى الله و سلم حتى انقاه قال له مجه قال و الله ما احمه ابداً[3].

و قدم ابوسفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم طوته عنه فقال يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به

١ــ زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٤

١ــ أيضاً ص ١٣٠ -

٢ــ أيضاً ص ١٣٦ -

عنى قالت بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم وانت مشرك نجس[1].

وقال عروة بن مسعود الثقفى لأصحابه بعد مارجع من الحديبية أى قوم والله لقد وفدت على الملوك على كسرى و قيصر والنجشى و الله مارأيت ملكا يعظمه اصحابه مايعظم أصحاب محمد محمداً و الله ان تنخم نخامة الا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده و اذا أمرهم ابتدروا أمره و اذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه واذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده و مايحدون اليه النظر تعظيما[2].

و لم يزل الانقياد والطاعة من جنود «الحب» المتطوعة فلما أحبه القوم بكل قلوبهم اطاعوه بكل قوتهم. يمثل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه و عن الانصار قبل بدر «انى أقول عن الانصار و أجيب عنهم فاظعن حيث شئت و صل حبل من شئت و اقطع حبل من شئت

---

١ — ايضاً ج ٠ ص ٢٢٦ -

٢ — زاد المعاد ج ٢ ص ١٧٥ -

وخذ من اموالنا ماشئت و أعطنا ماشئت و ما أخذت منا كان أحب الينا مما تركت و ما امرت فيه من امر فأمرنا تبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من عمدان لسيرن معك و لله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك»[1].

و كان من شدة طاعتهم له صلى الله عليه و سلم أنه صلى الله عليه و سلم نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فما كان من الناس الا أن اطاعوه و اصبحت المدينة لهؤلاء كانهامدينة الأموات ليس بهاداع و لامجيب يقول كعب و نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن كلامنا ايها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس او قال تغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الارض فماهى با الارض التى أعرف الى ان قال حتى اذا طال على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط ابى قتادة و هو ابن عمى واحب الناس الى فسلمت عليه فو الله ما رد

١ــ ايضاً ج ص ١٢٠ـ

على السلام فقلت له يا أبا قتادة انشدك بالله هل تعلمني احب الله و رسوله فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال: الله و رسوله أعلم. ففاضت عيني و توليت حتى تسورت الجدار ١.

وكان من طاعته ايضاً. وهو في موضع عتاب وحفوة. ان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ياتيه و يقول له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك إن تعتزل امرأتك فقال اطلقها ام ماذا افعل؟ فقال لا بل اعتزلها فلا تقربنها فقال لامرأته الحقي باهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله من هذا الامر ٢.

وكان من حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وايثاره على كل أحد في الدنيا ان ملك غسان يخطب وده و يستلحقه بنفسه و تلك محنة عظيمة في حال الحفوة و العتاب و لكنه برغم ذلك قال «بينما انا أمشي في سوق المدينة اذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول

١، ٢ — متفق عليه.

من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له الى حتى جاءنى فدفع الى كتابا من ملك غسان و كنت كاتبا فقرأته فاذا فيه أما بعد فانه قد بلغنا ان صاحبك قد جفاك و لم يجعلك الله بدار هوان و لا مضيعة فالحق بنا نواسك فقلت حين قرأتها و هذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها»[1].

و من غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ماحدث عند نزول النهى عن الخمر فى مجلس شرب فعن ابى بريدة عن أبيه قال بينما نحن نعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حده اذ قمت حتى آتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأسلم عليه و قد نزل تحريم الخمر: يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب و الازلام رجس من عمل الشيطان الى آخر الآيتين فهل انتم منتهون فحثت الى أصحابى فقرأتها عليهم الى قوله فهل انتم منتهون قال و بعض القوم شربته فى يده شرب بعضها و بقى بعض فى الاناء فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا مافى

١ــ متفق عليه.

باطنيتهم فقالو انتهينا ربنا انتهينا ربنا ١ .

ومن غرائب الطاعة للرسول و إيثاره على النفس والأهل و العشيرة، ماروى عن عبد الله بن عبد الله بن أبي: روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم عبد الله ابن عبد الله بن أبي قال الاترى مايقول أبوك؟ قال مايقول أبي أبت وأمي؟ قال يقول: لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل فقال فقد صدق و الله يا رسول الله انت و الله الأعز و هو الأذل امو الله لقد قدمت المدينة يا رسول الله و ان اهل يثرب ليعلمون ما بها احد أبر منى و لئن كان يرضى الله و رسوله أن آتيهما برأسه لآتيتهما به فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا، فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن ابى على بابها بالسيف لابيه ثم قال أنت القائل لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعزمنها الادل اما و الله لتعرفن العزة لك او رسول الله صلى الله عليه و سلم، و الله لا

١ـ رواه ابن جرير بسنده فى التفسير تحت قوله تعه يا ايها الذين آمنوا اما الحرا لآية تفسير الطبرى ج ٧ .

يا و يك ظله ولا تا و يه ابداً الا باذن من الله و رسوله فقال يا للخزرج ابنى يمنعنى بيتى يالخزرج ابنى يمنعنى بيتى فقال و الله لا يا و يه أبداً الا باذن منه فجمع اليه رجال فكلموه فقال و الله لا يدخله الا باذن من الله و رسوله فأتوا النبى صلى الله عليه و سلم فاخبروه فقال اذهبوا اليه فقولوا له خله و مسكته فأتوه فقال أما اذا جاء أمر النبى صلى الله عليه و سلم فنعم [1].

بهذا الايمان الواسع العميق و التعلم النبوى المتقن، و بهذه التربية الحكيمة الدقيقة و بشخصيته القوية الفذة و بفضل هذا الكتاب السماوى المعجز الذى لا تنقضى عجائبه و لا تخلق جدته بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الانسانية المحتضرة حياة جديدة، عمد الى الذخائر البشرية وهى أكد اس من المواد الخام لا يعرف أحد غناها و لا يعرف محلها و قد اضاعتها الجاهلية و الكفر و الإخلاد الى الارض فأ و حد فيها باذن الله ألايمان و العقيدة، و بعث فيها الروح الجديدة، و آثار عن دفائنها و اشعل مواهبها، ثم و ضع كل واحد

---

[1] تفسير الطبرى ج ٣٨ -

فى محله، فكانما خلق له، و كانما كان المكان شاغرا لم يزل ينتظره و يتطلع إليه و كأنما كان جماداً فتحول جسما ناميا و انسانا متصرفا و كأنما كان ميتا لا يتحرك فعاد حياً يملى على العالم ارادته و كانما كان أعمى لا يبصر الطريق، فاصبح قائداً بصيرا يقود الامم «او من كان ميتا فاحييناه و جعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها»

عمد الى الأمة العربية الضائعة والى أناس من غيرها فما لبث العالم ان رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر و سوانح التاريخ، فأصبح عمر الذى كان يرعى الابل لأبيه الخطاب و ينهره و كان من اوساط قريش حلادة وصرامة لا يتبوأ منها المكانة العليا و لا يحاسب له اقرانه حسابا كبيرا اذا به يفجأ العالم بعبقريته و عصاميته و يدحر كسرى و قيصر عن عروشهما ويؤسس دولة اسلامية تجمع بين ممتلكاتهما و تفوقهما فى الإدارة و حسن النظام فضلا عن الورع و التقوى و العدل الذى لا يزال فيه المثل السائر، و هذا ابن الوليد كان احد فرسان قريش الشبان انحصرت كفائته

الحربية فى نطاق محلى ضيق يستعين به رؤساء قريش فى المعارك القبلية فينال ثقتهم و ثناءهم و لم يحرز الشهرة الفائقة فى نواحى الجزيرة اذا به يلمع سيفا الهيا لا يقوم له شيئى الاحصده و ينزل كصاعقة على الروم و يترك ذكرا خالداً فى التاريخ، و هذا ابو عبيدة كان موصوفا بالصلاح والأمانة والرفق و يقود سرايا المسلمين اذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين و يطرد هرقل من ربوع الشام و مروجها الخضراء يلقى عليها نظرة الوداع و يقول السلام على سورية سلاما لا لقاء بعده، و هذا عمرو بن العاص كان يعد من عقلاء قريش وترسله فى سفارتها الى الحبشة لتسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائبا اذا به يفتح مصر و تصير له صولة عظيمة، و هذا سعد بن ابى وقاص لم تسمع به فى التاريخ العربى قبل الاسلام كقائد جيش و رئيس كتيبة اذا به يتقلد مفاتيح المدائن و ينيط باسمه فتح العراق و ايران، و هذا سلمان الفارسى كان ابن موبذان فى احدى قرى فارس لم يزل ينتقل من رق الى رق و من قسوة الى قسوة اذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الامبراطورية الفارسية التى كان بالامس أحد رعاياها و العجب من ذلك أن

هذه الوظيفة لا تغير من زهادته و تقشفه فيراه الناس يسكن فى كوخ و يحمل على رأسه الأثقال ، و هذا بلال الحبشى يبلغ من فضله و صلاحه مبلغا يلقبه فيه أمير المومنين عمر بالسيد، و هذا سالم مولى ابى حذيفة يرى فيه عمر موضعا للخلافة يقول لو كان حيا لاستخلفته، و هذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين الى مؤتة و فيه مثل جعفر بن ابى طالب و خالد بن الوليد، و يقود ابنه أسامة جيشا فيه مثل ابى بكر و عمر، و هذا أبوذر و المقداد و أبو الدرداء و عمار بن ياسر و معاذ بن جبل و ابى بن كعب تهب عليهم نفحة من نفحات الاسلام فيصبحون من الزهاد المعدودين و العلماء الراسخين، و هذا على بن ابى طالب وعائشة و عبد الله بن مسعود و زيد بن ثابت و عبد الله بن عباس قد إصبحوا فى احضان النبى الامى صلى الله عليه و سلم من علماء العالم الذين يتفجر العلم من جوانبهم و تنطق الحكمة على لسانهم ابر الناس قلوبا و اعمقهم علما و أقلهم تكلفا يتكلمون فينصت الزمان و يخاطبون فيسجل قلم التاريخ .

ثم لا يلبث العالم المتمدن ان يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التى استهانت بقيمتها الامم المعاصرة و سخرت

منهـا البلاد المجاورة، لا يلبث ان يرى منهـا كتلة لم يشـاهد التاريخ البشرى احسن منها تراثا كانها حلقة مفرغة لا يعرف طرفهـا او كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره، كتلـة فيهـا الكفـاية التامة فى كل ناحية من نواحى الحيـاة الانسانية، كتلـة هى فى غنى عن العالم و ليس العـالم فى غنى عنهـا و ضعت مـدنيتهـا و أسست حكومتهـا وليس لها عهد بهـا فلم تضطر الى أن تستعير جلا من أمـة أو تستعين فى إدارتهـا محكومة. أسست حكومة تمـد رواقهـا على رقعة منسعة من قارتين عظيمتين و ملأت كل ثغر و سيدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية و الديانة، والقوة والأمانة، تأسست هذه الحكومة المتشعبة الأطراف فانجدتهـا هذه الامة الوليدة التى لم يمض عليها الا بعض العقود ـ كله جهاد و دفاع و مقاومة و كفاح ـ برجل من الرجال الاكفاء فكان منها الأمير العادل و الخازن الأمين و القاضى المقسط، والقـائد العـابـد، و الوالى المتورع، و الجـندى المتقى، و كانت بفضل التربيـة الـديـنـيـة التى لا تزال مستمرة و بفضل الـدعوة الاسلامية التى لا تزال سـائرة، مـادة لا تنقطع و معينـا لا ينضب، لا تزال تسند الحكومـة برجـال

يرجحون جانب الهداية على الجباية و لايزالون يجمعون بين الصلاح و الكفاية وهنا ظهرت المدنية الاسلامية بمظهرها الصحيح و تجلت الحياة الدينية بخصائصها التى لم تتوفرلعهد من عهود التاريخ البشرى .

لقد وضع محمد صلى الله عليه و سلم ، مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على مافيها من كنوز و عجائب و قوى و مواهب ، أصاب الجاهلية فى مقتلها و صميمها ، فأصمى رميته ، و أرغم العالم العنيد بحول الله على ان ينحو نحواً جديداً ، و يفتتح عهداً سعيداً ، ذلك هو العهد الاسلامى الذى لايزال غرة فى جبين التاريخ

للمؤلف

١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

٢ ـ الى ممثلى البلاد الاسلامية

٣ ـ المد و الجزر فى تاريخ الاسلام

٤ ـ خواطر و فصول

٥ ـ من نفحات القرن الأول

تطلب

من مكتبة الاسلام، لكهنؤ (الهند)

سلسلة مطبوعات مكتبة الاسلام لكهنؤ

من يا هليتي إلى إسلام

ابوالحسن علی الحسنی الندوی

مكتبة الاسلام - لكناؤ

الطبعة الاولى ـــــــ ١٣٦٨ھ

طبعت فی ہندوستان پریس - رامپور (الہند)

بسم الله الرحمن الرحيم

و بعد فهذه رسالة نقدمها الى القراء و هى فصل من كتابنا الكبير «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» و الرسالة كأخواتها من مقالات و محاضرات ترمى الى تغذية الفكر الحديث فى الأقطار العربية التى هى معقل الانسانية اليوم و مناط آمال المهتمين بشؤون العالم بالأدب الاسلامى الحى الدسم الذى ينفخ فى الشباب الروح الاسلامى ويعده لقيادة العالم الحائر التائه و تجديف سفينة الحياة الضائعة بين الملاحين العابثين و الركاب النائمين، و ذلك لايكون الا باتباع منهاج الأنبياء فى الاصلاح و الجهاد اذاً لابد من معرفة طبيعة هذا الاصلاح و ما يمتاز به عن غيره من حركات الانقلاب و الثورات و من مشاريع التعليم و التربية و اذاً لاغنى عن حديث اعظم اصلاح و جهاد سجله التاريخ البشرى، الاصلاح الذى قام به سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم بامر من الله و على أساس من الوحى الالهى و الكتاب السماوى و هو الطريق الوحيد لنهوض العالم من عثاره.